حياة الشّعر في نهاية الأندلس(*)

د . حسناء الطرابلسي
(كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. تونس)
تقديم : د.سليم ريدان
(كلية الآداب منّوبة. تونس)

هذا عنوان كتاب جديد من الحجم الكبير، يملأ الفراغ في موضوعه ويشغل العارفين به. وأصله أطروحة دكتورا دولة ناقشتها المؤلّفة بالجامعة التّونسيّة بعنوان سابق: " الشّعر الأندلسي في القرنين 8 و9 الهجريّين".

وهذا العنوان الأصلي كان من تصوّر المؤلّفة قبل ممارسة الموضوع، تصوّرًا يمليه الحرص على دقّة المصطلح ووضوح المفاهيم وضبط الحدود مما يقتضيه كلّ عمل أكاديمي، ولو كان ذلك على حساب دقائق الأدب والفنّ.

أمّا عنوان الكتاب –مطبوعًا– فكان بعد ممارسة النّصوص وتقليب النّظر في كلّيّاتها وجزئيّاتها والنّفاذ في طرائقها وشعابها. فكان أن استجاب العنوان إلى دواعي الحسّ الأدبي تحليلا وحدسًا وممارسة دون التّفريط في ما تقتضيه دواعي العلم والتّاريخ.

العنوان الأصلي تحليلي قد يذهب بالقارئ –وكان يمكن أن يذهب بالباحثة– إلى مجرّد التأريخ والتّعريف بالشّعر والشّعراء، إلاّ أنّ الباحثة تجاوزت ذلك، ولم تفرّط فيه، فانعكس ذلك في العنوان الثّاني فكان تأليفيّا.

فعبارة "حياة الشّعر" تفيد معنيين في نظرنا: فهي مصدر يفيد الحدثان والوقوع في التاريخ من ناحية، وانبعاث الحياة في الشّعر حركة وإيقاعًا من ناحية أخرى. وممّا

(*) نشر مشترك بين دار محمد علي الحامّي. صفاقس ومركز النّشر الجامعي. تونس. أوت 2001 .

يؤكّد لي هذا الفهم العبارة الثّانية :"في نهاية الأندلس".فحرف الجرّ " في" يربط حدثان الشّعر بالتّاريخ : "النّهاية". مصدر يفيد الحدثان أيضا ويختزل قرنين من تاريخ الأندلس، ويحمل معنى ساد في الشّعر الأندلسي في هذه الفترة وهو "استشعار النّهاية" في خَلَد الإنسان يوقد شجاه. فكأنّ "حياة الشّعر" من " نهاية الأندلس". حدثان الشّعر من حدثان النّهاية. والحدثان واحد ومتعدّد الوظائف-جذور وحضور وعبور- متداخلُها. وهذا الثّلاثي في كلّيته مما نشأ للباحثة من كثرة تشبّعها بالنّصوص، نقدًا إبداعيًا.

كذا تولّدت للمؤلّفة رؤية تحليليّة تأليفيّة، تاريخيّة أدبيّة من تعاملها مع الشّعر في علاقته العميقة بزمانه. فجاء البحث في كليته مشغولا بمنزعين : منزع تاريخي تحليلي ومنزع أدبي تأليفي. والكل يؤلّف رؤية عميقة شاملة تستحضر "مظاهر التّجربة الشّعريّة " وتوثقها، وتبحث في " العوامل المؤثّرة وتستكشف كوامنها، وتنظر في "الوظائف المعبّرة " وتتقصّى فنون تشكّلها.

I – المنزع التّأريخي :

يتجلّى هذا المنزع في وجهين : تليد وطريف

أمّا التليد فهو التّأريخ لهذه الفترة سياسيّا وثقافيّا. ذلك لأنـــّها فترة مغمورة مجهولة من هذه النّاحية. وبعض البحوث الجزئيّة في شأنها مقتضبة متضاربة أحيانًا تفتقر إلى الشّمول وتعديل الأحكام وتصحيحها. وهذا ما تحقّق في القسم الأوّل من العمل وتوزّع على ثلاثة أبواب :

1) رسم الإطار التّاريخي العام تحت عنوان " الظروف والأعلام و الأعمال" . وهي تسمية مستعارة بتصرّف من عنوان كتاب ابن الخطيب. ولا يخفي ما في هذه الاستعارة من دلالة على الحس التّاريخي لدى المؤلّفة. فابن الخطيب من أعلام هذا العصروكتابه من وثائق تاريخها ومادته. فالدال في هذا العنوان مستمد من المدلول كأنّما ليطابقه ويتلبّس به.

وقد فصّلت الباحثة " الظّروف" إلى ظروف سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة. وبدت حريصة على ذكر بعض التفاصيل لتصحيح أخطاء المؤرّخين، ورسمت خريطة هذه الظّروف واضحة شاملة.

2) أمّا الباب الثاني فقد تطوّر فيه البحث من " الأعمال والأعلام"إلى الشعروالشعراء. حيث عرّفت الباحثة " بأبرز شعراء القرنين" وجمعت ما توفّر لها من معطيات تاريخيّة حولهم وحول شعرهم، المطبوع منه والمخطوط والمفقود. وتهيّأ لها بذلك أن تفرز سبعة منهم تعتمدهم في دراستها دون سواهم لتوفّر المادّة الشّعريّة لديهم وقلّتها أو انعدامها عند سواهم.

ولم تكن وظيفة هذا الباب تبرير الاختيار فقط، إنّما كان تأسيسا لتواصل البحث حول كلّ شعراء الفترة، في ضوء ما يمكن أن يكتشف مستقبلا من مخطوطات.

3) أمّا الباب الثّالث فقد خضع لنظام الانتقال من العام إلى الخاصّ وتعلّق بالتّعريف " بشعراء المدوّنة" السّبعة. فترجمت لهم وقدمت أشعارهم. وتوسّعت في عرض حياة بعضهم كالبسطي وابن الجيّاب ويوسف الثّالث توسّعا لافتا حتّى لكأنّها أرادت أن يكون عملها في شأنهم جامعًا شاملا يُكتفى به دون سواه.

هذا المنحىالتّاريخي الذي استغرق القسم الأوّل من أقسام العمل الأربعة لا ينتهي بانتهاء هذا القسم. وإنّما يتخلّل العمل من أوّله إلى آخره. ولا يكاد يخلو منه فصل. ويتمثّل في التّأريخ للنّصوص- مفردة وجمعا- وتوثيقها والبحث عن أصولها وأشباهها ونظائرها مما يعتبر في حدّ ذاته من شروط الأكاديمية، ويمثل إضافة علميّة قوامها كشف المجهول وتوضيح الملتبس ورسم الأسس وتحديد منطلقات جديدة لاستمرار البحث مستقبلا.

ولهذا الحس التاريخي وجه آخر دقيق لطيف أنعته " بالطّريف " في معنى الكلمة قديما وحديثا. ويمثّله الثّالوث الذي نزّلت فيه الباحثة أشعار هذه الفترة : شعر الجذور وشعر الحضور وشعر العبور. وهو تصوّر يتجاوز مفهوم التّاريخ باعتباره توثيقا

وتسجيلا لتفاصيل الأحداث ليلتئم مع توجّه أندلسيّ في التّأليف يجمع بين الأدب والتّاريخ والجغرافيّة. وخير ما يمثّله كتاب الذّخيرة لابن بسام. ويرتسم واضحًا جليّا في " شعر النقوش". ولكنّه يدخل التّاريخ من الشّعر ودقائق رموزه ليلتقي مع الفكر الخلدوني في رؤيته التّأليفيّة. ويعتمد الجزئيّ لرسم "الكلّي " في مستوى الذّات والوجدان لا في مستوى الموضوع.

II- منحى تحليل النّصوص :

استغرق التّحليل ما يقارب ثلاثة أرباع العمل (من ص 183 إلى 707) وتوزّع على أقسام ثلاثة بعد القسم الأوّل التّاريخيّ،محورها الشعر في علاقته بمفاهيم ثلاثة، الجذور والحضور والعبور. وهذا ما ينحو بالعمل إلى جوهر موضوعه وهو ممارسة النّصّ الشّعري ممارسة آنية تعتني به فنّا يتجذّر في زمانه ومكانه ويتجاوزهما إلى معانيه الكلّيّة وأبعاده الفنّيّة.

وهذا التّوزيع الثّلاثي في حدّ ذاته ليس يسيرًا. فلا شكّ أنّه قد تولّد عن تحليل كلّ النّصوص وتمحيصها تمحيصا يستصفي جواهر الفنّ وثوابته الكامنة عبر تشابك مكوّناته وجزئيّاته ورموزه.

1) شعر الجذور :

هذا عنوان القسم الثّاني وقد شمل أربعة أبواب :

الباب الأوّل في الغزل : ركّزت فيه على ثلاثة شعراء من سبعة هم ابن خاتمة ويوسف الثّالث والقيسي. وعلّلت هذا التّركيز بمبرّرات مختلفة منها الطّرافة كعشق الأسير عند القيسي.

الباب الثّاني : تعرّضت فيه إلى معاني "المدح السّياسي ". وهذا مصطلح آخر من نحتها. وهو ما استدعى من الباحثة تحديده في ضوء تميّز مدونتها. وأفضى بها التّحليل إلى أنّ المدح بالأندلس في هذه الفترة تغيب فيه أو تقلّ بعض المعاني المدحيّة المتواترة في سائر المدائح كالكرم مثلا. بينما تبرز معاني الحرب والجهاد والحنكة

السّياسيّة ووصف الجيش والأسطول. فهو مدح يقتصرمن المعاني السّائدة في الغرض على ما يستدعيه الوضع السّياسي بالأندلس. وهو ما يحقّق تميّزه نسبيًا.

الباب الثّالث : تعلّق بالشّعر الدّيني حيث حرصت الباحثة على تعليل انتشاره بأسباب ثلاثة مردّها إلى " الوضع السّياسي المتقلقل" الذي يولد الشّعور باليأس والرّجوع إلىاللّه ويدعو إلى الجهاد. ثمّ درست الموضوع لدى خمسة من شعراء المدوّنة : هم ابن الجيّاب وابن خاتمة وابن الخطيب وابن فركون والقيسي. وأبرزت مميّزاته الأسلوبيّة أو المعنويّة لدى كلّ منهم، واختزلتها في عناوين الفصول.

الباب الرّابع : تعلّق بالرّثاء استهلّته بفصل أوّل في رثاء الوجهاء حلّلت فيه أهمّ معاني الرّثاء المعهودة مثل إضفاء صفة الكونيّة على حادث الموت. ومعاني التّأمّل والاعتبار والتعزية والتّهنئة، واستلهام الصّور من العالم القدسي. ثمّ تطرّقت إلى معان تربط هذا الرّثاء بواقع الأندلس، أهمّها تأبين المرثي بفضائل فكّ الأسير أو إصراخ المذعور... وتعرّضت في الفصل الثّاني إلى رثاء النّساء، وفرّعته إلى رثاء الزّوجة ورثاء الوجيهات. واستطاعت أن تلتقط فيه بعض وجوه الطّرافة مثل توظيف الوقفة الطّلليّة في رثاء الزّوجة (ص 325).

وتعلّق الفصل الثّالث من هذا الباب برثاء الأطفال، تعرّضت فيه بالتّحليل إلى مجموعة من القصائد لابن الجيّاب ويوسف الثّالث وابن فركون، واستخلصت خصائصها المميّزة وحظّها من الجودة وصدق العواطف. وأنهت الفصل بخاتمة حدّدت فيها مميّزات كلّ من الأغراض الأربعة. مبرزة علاقته بالتّجربة الأندلسيّة، ثمّ أجملت القول بما يعلّل ويوضّح مفهوم عنوان كامل القسم وكان من نحتها وكأنّما استخلصته من مجموع ما حلّلت من النّصوص فقالت: " وعلى العموم كان شعر الجذور شعر البحث عن الهويّة يستند فيه الشّاعر إلى رصيد القيم التي تربطه بالماضي، بالأصل الحضاري والعرقي إلا أنّه يغذيه من روافد ذاتيّة يستمدّها من وضع الإنسان وواقع المكان." (ص 347) .

II – القسم الثّالث : " شعر الحضور"

بوّبته المؤلّفة حسب أشكال ثلاثة- لا أغراض. هي على التّوالي: الموشح وشعر النّقوش وشعر الوصف. وقد شغل أطول أقسام العمل (211 ص) ولا غرو فهو لب العمل كلّه وقلب الشّعر الأندلسي النّابض في هذه الفترة.

1) الموشّح :

توزّع فيه البحث على ثلاثة فصول هي على التّوالي : موشّحات ابن خاتمة وموشّحات ابن الخطيب وموشّحات ابن زمرك.

والجديد في هذا الفصل أنّه تناول نصّ الموشّح بالتّحليل الأسلوبي الدّقيق من ناحية- وهو ما لم تُسبق إليه المؤلّفة- وتدبّر ثوابته البنيويّة والمعنويّة. وهي ثوابت تخصّ الموشّح في كلّ زمان لا في هذه الفترة فحسب ممّا يجعل من عملها من هذه النّاحية مصدرًا أساسيًا لا يمكن الاستغناء عنه في كلّ بحث حول الموشّحات.

وهذه الثّوابت متعدّدة نكتفي ببعضها على سبيل المثال. فمن النّاحية المعنويّة خلصت المؤلّفة إلى أنّ الموشّح مداره الثّالوث : الطّبيعة والمرأة والخمرة في تفاعلها وتفاوضها وتجاورها وتقابلها، أي الانتشاء والصّبابة في جنان الأندلس. ومنها الخروج عن المواضعات الاجتماعيّة الأخلاقيّة منها وغير الأخلاقيّة. ومنها الإحساس الفاجع بالزّمان وشعور بالغربة الوجوديّة يدعو الإنسان إلى " اغتنام اللّحظة العابرة قبل فواتها والاستمتاع باللذة المواتية قبل زوالها " (ص396).

أمّا الأسلوبيّة فمنها " صبغة الصّدديّة" التي تنزع بالموشّح إلى تجسيم الأفعال حتّى لكأنّ الكلام هو الحياة. ويتمثّل خاصّة في الصّيغ الإنشائيّة بل ويتجاوزها إلى ما يمكن أن يسمّى بـــ " محاكاة الأصوات"، " تسميةً صريحة"* يطابق فيها الدّال مدلوله ويستوي مرجعا اسمًا ومسمّى. ومُجمله " رسائل برقيّة " أو " وحدات كلاميّة محدودة المدى ولكنّها مكتنزة بالمعاني مختزلة لها. لذلك فهي عميقة الدّلالة بعيدة الإشارة ".

* انظر بالنسبة إلى هذا المفهوم، سليم ريدان. منابع الشعر في الزّجل الأندلسي. تونس 2001 ص 94.

ومن ذلك أن نظام بيت الموشح قوامه في مواطن كثيرة " وحدات قلما تطابق الوحدات المعنويّة أو المنطقيّة ". والأجزاء الموقعة " تخضع الكلام لتقطيع كثير الوقف، غير مسترسل، لا تستسيغه الأذن عند القراءة العاديّة ولكنّه في المقابل (...) يجعلها أكثر تلاؤمًا مع أنغام الموسيقى والرّقص " (ص 367).

ومن ذلك التّأكيد على أهمّيّة التّفاوت في المستويات اللّغويّة فيما بين الخرجة وما سواها من الموشّح الخ... وبعض هذه الثّوابت ربّما كانت قد سُبقت إليها ولكنّها تكتسب أهميّتها في هذا العمل من إجرائها على نصّ الموشّح بالتّحليل وكشف تشكّلاتها المتنوّعة في الإبداع مما يمتزج فيه التّنظير بالتّطبيق ويدقّ حتّى على بعض المختصّين.

وبالإضافة إلى هذه الثّوابت الجواهر في الموشّحات اهتمّت الباحثة بالعوارض المتولّدة عن العصر. وتمثّلت في ما أضافه ابن زمرك أوطوّره من مواضيع الموشّح كالمدح والحنين إلى الأوطان والطّرد... مما يزيد في تجذير المرشّح في محيطه.

ومما ختمت به الباحثة هذا الباب قولها: " إنّ صلة الموشّح بالواقع الأندلسي صلة متينة (...) منذ نشأته الأولى ... إذ يبدو نابعا من أصول مأسويّة تأزّميّة فكأننا بأهل الأندلس أحسّوا بأنّ أندلسهم جنّة، ولكنّهم أدركوا أنّها ليست بجنّة الخلود (...) فابتدعوا هذا الفنّ (...) يخلدون فيه وجهها المشرق الزّاهر ويحمّلونه أحاسيسهم نحو ذلك الوطن..."

2) <u>الباب الثّاني</u>: أشعار النّقوش : مغازيها ومراميها.

لم يرد في هذا الباب أي مرجع بالعربيّة يتعلّق به. ولم أقرأ عنه شيئا بالعربيّة إلا ما كان ترجمة. والمؤلّفة قد عوّدتنا بحرصها على ذكر مراجعها ولو من أجل كلمة أو عبارة. معنى هذا أنّ هذا الباب يمكن أن يعتبر الأوّل من نوعه في العربيّة. على أنّ الباحثة قد أفادت من مراجعها بالإسبانيّة أو بالفرنسيّة وأصلحت الأخطاء أحيانًا وعدّلت بعض ما فيها من أحكام وتجاوزتها.

فمن باب التّعديل والإصلاح أن بحثها كان ردّا على ما.خ. روبيراماتا في اعتبارها شعر النّقوش " مجرّد زخارف خاوية لا معنى لها سوى التّدليل على أنّ الشّعر الأندلسي جاء يلفظ أنفاسه الأخيرة على جدران الحمراء" (ص424). وأمّا التّجاوز فيتمثّل في أنّ تحليلها لم يقتصر على وصف الظّاهرة في وجهها التاريخي والحضاري، إنّما تركّز على مدلولها وأبعادها الفنّيّة والإنسانيّة. واهتمّ فيها بتشابك العلاقات الظّاهرة والباطنة بين فنون ثلاثة: الشّعر ودقائق أساليبه، والخطّ ولطيف زخارفه، والمعمار ونظام هندسته. وآل بها البحث إلى القول بأنّ " هذا الشّعر، إلى جانب قيمته الوثائقيّة والأدبيّة ذو قيمة وجوديّة." والبحث كلّه يعلّل لفظ الوجوديّة (نسبة إلى الوجود لا إلى المذهب الفلسفي المعروف). فكلّ ما فيه يؤكّد وعيهم بوجودهم زمانا ومكانا وتشبّثهم بالحياة وصراعهم مع الزّمان وحرصهم على الرّسوخ في المكان على مدى الدّهر.

3) <u>الباب الثّالث</u> : **الوصف**

بدأت الباحثة هذا الباب بتمهيد حددت فيه وضع البحث في الموضوع في الدّراسات الغربيّة والعربيّة، وعيّنت حظ الوصف من أشعار شعراء المدوّنة وأنهته بتساؤلات تشير إلى عمق الموضوع وانفساح آفاقه. ثمّ تناولته في فصلين :

- جواهر الموصوفات
- و عوارض الموصوفات

وتوسّعت في الموصوفات الجواهر توسّعًا لافتا شمل عنصرين

- الطبيعة الصّامتة وأهمّ مكوّناتها
- ومجالس الأنس

واهتمّت بالأساليب المستعملة في الوصف. وأهمّها توظيف معجم جمال العروس لوصف جمال الطّبيعة واستعارة لغة العشق إيحاء بما في الطبيعة من رموز العلاقات والتّفاعل بين عناصرها الصّامتة والحيّة.

وهي أساليب دقيقة يكشف تدبّرها بالتّحليل المتأنّي عن عميق الأبعاد من شؤون الإنسان في علاقته بالوجود حوله زمانًا ومكانًا. وهو ما أفاضت المؤلّفة فيه القول عند تحليلها للموشّحات أيضا:أصداء الكيان الأندلسي تتعدّد أشكالها الفنّيّة وتتنوّع. والباحثة ترصدها بعدسة فاحصة تكشف عن لطائفها وخفاياها المميّزة.

وهذا شأنها مع شعريّة الشّتاء في " جوّ احتفالي بهيج " (ص471) ومع الغيث و "حلول الخصب بعد الجدب ". ولم تفتأ تستخرج من كلّ وصف معناه ومغزاه لدى الواصف. فوصف الطّبيعة عند ابن خاتمة وابن زمرك – خلافًا لما رأينا أو تقابلاً وتكاملاً معه– تمجيد للخالق أو إطراء للممدوح. (ص486) .

ولم تكتف الباحثة بهذا التّبسّط في الموصوفات المشتركة بين شعراء المدوّنة وسائر شعراء الأندلس بل حرصت على ما تفرّد به بعضهم دون بعض مثل وصف الزّهور والثّلج، والطّبيعة الحيّة كالخيل والزّرافة... وكان لها في جميع ذلك مزيّة التّنبيه إلى طرائف هذه النّصوص المغمورة، أسلوبًا وموضوعًا.

أمّا المحور الثّاني من جواهر الموصوفات فتعلّق بمجالس الأنس (ص501). ونبّهت الباحثة إلى ندرة نصوصها علامةً من علامات العصر. وما توفّر منها مطبوع بطابع العصر. وتعرّضت فيه بالتّحليل إلى ثلاثة قصائد لابن الخطيب وقصيدتين لابن خاتمة. وآل بها التّحليل إلى النّتائج التّالية:

أمّا ابن خاتمة فالمجلس عنده دنيوي (Profane) بحت كسائر المجالس بالأندلس في عصور ازدهارها، قوامها عناصر أربعة :"الطّبيعة والمرأة والخمرة والموسيقى. ويخيّم عليها الإحساس الفاجع بالزّمان، والرّغبة الملحّة في اغتنام اللّذّة المتاحة قبل فوات الأوان " (ص 518).

أمّا الفصل الثّاني فتعلّق بعوارض الموصوفات. وكانت موضوع نصوص قصيرة من قبيل المقطعات والنتف، متعدّدة ومتنوّعة تنوّعا " لا يكاد يدخل تحت حصر". وأرجعتها المؤلّفة إلى محاور أربعة: الإنسان والبلدان والمصنوعات والحياة اليوميّة.

وليس من المألوف الاهتمام بها في الدّراسات الشّعريّة لما يبدو عليها من تفاهة ولكنّ الباحثة استطاعت أن تتبيّن فيها ملامح الفكر الأندلسي وشعريّة الحياة اليوميّة الأندلسيّة سواء لدى الخاصّة أو العامّة.

وأنهت الباحثة باب الوصف بخلاصة متعدّدة المقاصد من بين ما تقول فيها : "ارتبط الوصف بواقع الأندلس بوجهيه المشرق والمتأزّم". فأمّا المشرق " فطبيعة ربيعيّة خصبة " وأنهار وأشجار وأزهار ودور وقصور ومنتزهات " وما حوته من مظاهر الحضارة وازدهار الفنّ ورقّة العيش" مقابل حروب ومعارك ونفسيّات متأزّمة قلقة إزاء الوضع المقلقل بالأندلس. ثمّ تلت هذه الخلاصة خاتمة القسم كلّه، تعدّدت فيها الاستنتاجات نكتفي منها بقولها: (ص 558) " إنّ شعر الحضور من أكثر الأشعار الأندلسيّة تعبيرًا عن المفارقة البشريّة. ففيها يظهر الإنسان مهوّسًا بقصر الحياة وسرعة الفناء ... ولكنّه في نفس الوقت حريص على اغتنام اللحظة العابرة قبل انقضائها، مسكون بهاجس تخليد المرور قبل العبور. لذلك جاءت الأبواب الثّلاثة معبّرة عن هذا الهاجس. فأمّا الموشّحات فتعبير عن رغبة التّزوّد من الدّنيا قبل الرّحيل. وأمّا أشعار النّقوش فتخليد الذّكر قبل الاندثار. وأمّا الوصف فتسجيل الحضور قبل العبور."

III – <u>القسم الرّابع</u> : شعر العبور

شمل هذا القسم ثلاثة أبواب :

- شعر الإصراخ والاستصراخ
- وشعر الأسر
- وشعر استشعار النّهاية

واستهلّت الباب الأوّل بفصل أصلت فيه المصطلح (شعر الإصراخ والاستصراخ) وأرّخت للموضوع في الشّعر العربي، وعرضت بوادره التّاريخيّة بالأندلس منذ فتنة قرطبة وسقوط بربشتر فطليطلة في أيدي النّصارى وحتّى العصر النّصري.

وتعلّق الفصل الثانّي والثّالث بشعر الإصراخ والاستصراخ في القرنين 8 و 9 على التّوالي وحسب التّرتيب. وفّقت فيهما الباحثة بين التّأريخ وتحليل النّصوص. فكان الشّعر صورة صادقة لواقع الأندلس المتهافتة نحو النّهاية.

أمّا موضوع الأسر فقد تركّز حول شعر القيسي. واستهلّته بفصل رسمت فيه صورة الأسير المسلم في دار الحرب في العصر الوسيط. فكان هذا الفصل تداركًا على قلّة الدّراسات العربيّة في الموضوع، وخاصّة في العهد الغرناطي، وعلى سكوت الغربيين عن وضعيّة أسرى المسلمين انحيازًا لبني جلدتهم أو لاقتصارهم على المصادر الأروبيّة دون المصادر العربيّة. فكان هذا الفصل إضافة مهمّة في تاريخ نهاية الأندلس على غاية من التّوثيق والتّحقيق من ناحية، تعرّضت فيه إلى وضعيّة الأسير المادّيّة والقانونيّة والأدبيّة والدّينيّة ومدّة الأسر، ثمّ هو من ناحية أخرى يمهّد للفصل الموالي : شعر الأسر. وهذا الفصل يتفرّع إلى محورين: شعر الأسر بالأندلس قبل القيسي وشعر الأسر في ديوان القيسي. فكان المحور الأوّل تأريخًا مقتضبًا للمادّة الشّعريّة بالأندلس في الموضوع لا يخلو من تنبيه إلى ما فيها من ثغرات. أمّا المحور الثّاني فقد تركّز على تحليل الشّعر دلالة وأسلوبًا، تحليلا رسمت فيه شهادة القيسي، "الشّهادة الحيّة النّابضة، المتكاملة عن حياة الأسير المسلم في دار الحرب".(ص663).

أمّا الباب الثّالث من هذا القسم فيلفت الانتباه بفصله الأوّل الذي جمع بين التّاريخ – تاريخ الأندلس منذ فتحها– والشّعر. لغاية التّدليل على أنّ نهاية الأندلس كامنة في البداية وأنّ النّهاية نهايات. فالأندلس قد عرفت أحداثا جساما ولّدت في نفوس أهلها استشعار النّهاية اكثر من مرّة. وكان لذلك صداه في الشّعر.

أمّا الفصل الثّاني فتعلّق بنهاية النّهايات ووصف علاماتها من خلال ديوان القيسي. ومن هذه العلامات أن جفت لغة الشّعر في وصف مجالس الأنس القليلة في ديوانه. "فكلّما تحدّث عن مجالس الأنس والبهجة كانت ألفاظه عامّة ومعانيه مباشرة، لا صورة فيها ولا تخييل ولا حيويّة ولا تمثيل. فكأنّها شاهد على غائب ."

ومن علامات النّهاية تقلّص الحياة الأدبيّة وميل الشّاعر إلى العزلة وسوء ظنّه بالصّديق المؤنس. ومنها فساد الأوضاع ببسطة واختلال القيم وتدهور الخطط والمؤسّسات وضياع الأحباس وخراب المساجد وتدهور القضاء. كلّ ذلك قد شهد به الشّعر ونطق بما يتولّد عنه في النّفوس من حيرة وألم وشجى. وحظي بالتّحليل.

وآخر علاماتها انتشار الرّعب والفزع من ويلات هجومات العدوّ للسّلب والنّهب وإجلاء السّكّان عن أرضهم. ونطق الشّاعر به فقال :" مُصابٌ عظيمٌ..." لا لغاية "الإخبار المجرّد" وإنّما "للتّحسيس بثقل المصيبة والتّعبير عن الانزعاج والتّفجّع" حسب تحليل المؤلّفة. وتطوّر الأمر معه من استشعار النّهاية إلى " حياة النّهاية ".

وانتهت مسيرة تحليل حياة الشّعر في نهاية الأندلس بخاتمة استغرقت 12 صفحة. أجملت الباحثة في قسم منها خلاصة ما انتهى البحث إليه من نتائج وما قام عليه من اختيارات منهجيّة وآراء نقديّة. وهو ما كشف عن عمق الرّؤية التي صدر عنها ووسّع آفاقها فانفتحت في القسم الثّاني من الخاتمة على طرح قضايا وتدبّر إشكالات تتجاوز الموضوع المطروق وتستشرف غوامض حياة الشّعر وحلول الأندلس في وجدان الإنسان خالدة على مدى الدّهر.

وبعد فإنّ كلّ بحث علميّ لا يخلو من فوائد. منها أن يعرّف بما كان مجهولا أو أن يصلح ما كان خاطئًا أو أن يعدل الأحكام الخ... فهو أمر مهمّ. وقد توفّر منه في هذا البحث الكثير ممّا نبّهنا إليه في إبّانه من عرض العمل. ولكن الأهمّ في كلّ بحث علميّ من هذه الدّرجة ما يمكن ان يتفرّد به دون سواه.

وفي اعتقادي فإنّ ما يبقى لافتًا وواعدًا في هذا البحث هو هذا التّعامل مع الشّعر من عدسة تلك المفاهيم الثّلاثة بأبعادها المتبلورة في علم الانتربولوجيا. ولا غرو أن يستقيم لها ذلك لأنّ الشّعر هو الإنسان.

وليست الباحثة مختصّة في هذا العلم ولا هي طبّقت مناهجه ولكنّها استلهمت هذه المفاهيم في دراسة مدوّنة شعريّة كانت مهيّأة لهذا التّعامل. معنى هذا أنّها قد تدبّرت

منهجًا وتلطّفت ليكون المنهج خاضعا للمادّة المدروسة لا أنْ يسلّط عليها بتعسّف فيما ليس من المألوف استلهامه في التّعامل معها.

لقد كان البحث جامعًا بين الشّعر والتّاريخ على نحو يعقد بينهما صلة وجوديّة محورها الإنسان والوجدان. فالتّاريخ، باعتباره سردًا لما يحدثه الإنسان في الزّمن وما يتلقّاه من حدثانه وتحقيقه فيه وتأمّلا للاعتبار، قد احتلّ طرفي العمل لا باعتباره إطارًا فحسب ولكن باعتباره منبعا للشّعر. لذلك تخلّلت معانيه كامل العمل.

والشّعر باعتباره لغة الوجدان قد حلّ في التّاريخ، واحتلّته الباحثة في سياق بحثها بالضّرورة محلا من التّاريخ يوسّع مجاله من عالم حركة الأشياء والأحياء الظّاهرة إلى عالم حركة النّفس والوجدان الباطنة، ويحوّل معنى الزّمن فيه من معنى التّسلسل الخطّي إلى معنى المدّة تستقطب أبعاده الثّلاثة وتدرك إحساسًا ولا يسجّلها – تاريخا- إلا فنّ الشّعر. ولا يُدرك تشكّلها فيه إلاّ بمثل ما ولجته الباحثة من مسالك التّحليل.

ولا أدلّ على هذا الرّبط بين الشّعر والتّاريخ وتحوّل الزّمن التّاريخي من معنى الخطية إلى معنى المدّة من ذلك الثّالوث الذي تنزّلت فيه دراسة الشّعر: جذور وحضور وعبور. ولم تفتأ تشير إلى تراكمها في الشّعر وتفاعلها في سرائر الوجدان وإن هي فصلت بينها لغاية منهجيّة.

هذا الرّبط بين الشّعر والتّاريخ على هذا النّحو إنّما يصدر عن شيء في طبيعة الأدب الأندلسي وهو أنّه مسكون بواقعه حتّى وإن بدا متماثلا مع الأشكال المشرقيّة.

وبعـــد، فليس هذا العمل ثمرة سنوات من البحث معدودة، إنّما هو حصاد عمر. وقد شغلنا. وفي كل حصاد مجال للانتقاط لم نعتن به، وليس من همّنا.

" يبـــقى أن نشـــير أنّ هذه الطبعة قد أهملت الفهارس. وعمل في مثل هذا الحجم والقيمة تبقى الاستفادة منه محدودة بدونها. نرجو أن يقع تلافي ذلك في طبعة ثانية "*

(*) ملاحظة من هيئة التحرير.